حركـــيَّة الـنسيجِ النصيِّ في الشعرِ الأندلسيِّ (امتدادُ التأثرِ وارتدادِ الأثر)

م.د. أسيل محمد ناصر
جامعة الكرخ للعلوم – العراق
aseel.m@kus.edu.iq

التقديم: 2023/1/28 القبول: 2023/3/1 النشر: 2023/6/15

Doi: https://doi.org/10.36473/ujhss.v62i2.2199

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International Licenses

الملخص

تأتي مشكلة البحث محاولة تجديديَّة لإعادة استقراء الشعرِ الأندلسيّ وظاهرة على وفق متطلبات النقد المُعاصر، وإنَّ الدراسة هنا جاءت محاولةً تجديدية في إعادة النظر بتراثِ الشعرِ العربيّ، وقراءته برؤيةٍ معاصرة تستجيبُ لمريدات النقد العربيّ المُعاصر، وتحديث القراءات التراثية على وفق متطلباته العصريّة. الهدف من البحث هو الوقوف على مدى استجابة الشعرِ الأندلسيّ لنظريات النقد المعاصرة، والتماهي مع منطلقاتها، ومدى التأثُّر والتأثير الذي اتضحت معالمه في نصوص الشعراء الأندلسيين. احتكمت الدراسة لإجراء تطبيقيّ على عدد من النصوص الشعريَّة التي اتضحت فيها مديات التغيير الذي طرأ على الشعرِ العربيّ؛ نتيجةً للتحول المكانيّ الذي طرأ على الشاعر الأندلسيّ؛ من حيثُ الألفاظ والمعاني والصور، ومدى انعكاس ذلك على الشعرِ في الأندلس لغير العرب، عبرَ منهج بحثيّ تطبيقيّ تحليليّ يحتكمُ للرؤى النقديَّة المعاصرة في تفكيك النصوصِ وإعادة استقرائها مجددًا . تبينَ أنَّ النصَّ الشعريَّ الأندلسيَّ قادرٌ على الاستجابة لمتطلبات النقد المعاصر، وأثبت الأثرُ الذي تركهُ الشعراء العربُ في الأندلس في مضمون الحياة الأندلسية، وانعكاس ذلك على شعراء أوروبا في شعر (التروبادور).

الكلمات المفتاحيَّة : الأندلسي، الشعر، النسيج النصيُّ، النقد المعاصر .

The Movement of Textual Texture in Andalusian Poetry (An Extended Influence and Rebound Effect)

Inst. Dr. Aseel Mohammed Nalir
Al-Karkh University of Science, Iraq
aseel.m@kus.edu.iq

Abstract

The research problem comes as a renewal attempt to extrapolate Andalusian poetry and its phenomenon according to the requirements of contemporary criticism.The aim of the research is to determine the extent of the response of Andalusian poetry to contemporary theories of criticism, identification with its premises, and the extent of influence and influence whose features became evident in the texts of Andalusian poets .The study resorted to an applied procedure on a number of poetic texts, in which the extents of change that occurred in Arabic poetry became clear. As a result of the spatial shift that occurred to the Andalusian poet; In terms of words, meanings, and images, and the extent of their reflection on poetry in Andalusia for non-Arabs, through an applied and analytical research approach that appeals to contemporary critical visions in deconstructing texts and re-extrapolating them again. It turned out that the Andalusian poetic text is able to respond to the requirements of contemporary criticism, and it proved the impact left by the Arab poets in Andalusia on the content of Andalusian life, and its reflection on European poets in the poetry of the troubadours.

Keywords: Andalusian, poetry, textual fabric, contemporary criticism

المقدّمة:

مثَّل العصرُ الأندلسيُّ نقطة انطلاقٍ جديدة في حياة الشاعر العربي، ورؤية تجديدية في مسيرة الشعر العربيّ؛ بحكم ما اتسمت به هذه الحقبة التاريخية من حياة الشعر العربيّ من تغييرٍ في منظومة التفكير لدى الشاعر العربيّ الذي راح يبحثُ ويتأملُ في صور الطبيعة، وتمازج الأقوام وألسنتهم، والحياة الجديدة التي تختلفُ عن بيئة الشرق وتفصيلاتها؛ الأمر الذي جعل من الشاعر العربيّ مُحاطًا في مراحلَ ثلاث؛ ليكتملَ عندهُ المشهد، فالمرحلة الأولى هي (مرحلة الخيال) والمرحلة الثانية هي (مرحلة التخييل) والمرحلةُ الثالثة هي (مرحلة الإخراج الفنيّ)، وهذه المراحل تمثِّلُ مجتمعةً الأداء الحركيَّ لنسيج النصِّ الذي تحولَّ عقبى ذلك إلى حالة جديدة انعكست وأخذت مداها في على الثقافات والشعر الأوروبي بنحو عام فانعكست الجذور العربيَّة كالزجل الموشَّح على الثقافات الأوروبيَّة كافة (ينظر: الطاهر مكي، 1987، ص 119) THE (Taher) Makki,1987,p:119.، فهذه الملامحُ والتفاصيل أعطت مساحة فنيَّة للشاعر الأندلسي لأن يؤثر ويتأثر، وهذه الرفقة التبادليَّة تحتاجً لوقفةٍ على وفق النقد المعاصر؛ لتتضح معالمها الفنيَّة في تفاصيل النقد الحديث وناقديه عبر الدراسة للمضمون وجوهره ومراحله التي مرَّ عبرها البناء الفني للقصيدة الأندلسيَّة بوساطة مباحث ثلاث : المبحث الأول: مرحلة الخيال . المبحث الثاني: مرحلة التخييل. المبحثِ الثالث : مرحلة امتداد الأثر ورجع الصدى . وهذا ما ستوضحه تفصيلات هذه الدراسة عبر اتجاهاتها النقديَّة المُعاصرة.

المبحث الأول : مرحلة الخيال :

وهي المرحلة الأولى من مراحل التكوين الإبداعيّ التي يبحث عنها الشاعر؛ لغرض الإعداد للمرحلة التي تليها، وهي مرتكزة على أساس تفكيريّ يستندُ للرصد، والملاحظة، والتأمل، فالخيالُ هو(صورة للتجربة تعمل على تقديم الحقيقي وغير الحقيقي في خليط أو مزاج غير محدد العوالم يقوم الفهم بعد ذلك بترسيب الحقيقة منه) (الربيعي، 2012، ص 131) (Al-Rubaie, 2012, p. 131)، ومعنى ذلك أنَّ ارتباطهُ الأولى متعلقٌ بمجهود الشاعر، وقدرته الذاتيَّة على التقاط الصور والوقائع من تفاصيل الواقع، وخزنها في ذاكرته؛ ليعمل بع ذلك على استرجاعها بالطرائق التي تمكنَّهُ في أن يجعلها مؤثرةً ومقبولة بل لأبعد من ذلك تصلُ إلى حالة من الادهاش عبر آلية نقديَّة يُصطلح عليها (التداعي)؛ بوصفها (وسيلة خلقٍ فنيٍّ لفعلِ التصوير الذي يستمدهُ الشاعر عبر تداعيات ذاكرته الخياليَّة المحفِّزة لذلك الفعل . فعل التصوير . للدخول إلى بيئة النسيج النصِّي) (ناصر، 2016، ص 133) (Nasser, 2016, p. 133)؛ ليحقق عبر تلك البيئة نتاجًا شعريًا مختلفًا عمَّا رآهُ في رصدياتهِ السابقة المقتبسة من الطبيعة المشرقيَّة التي تختلفُ في نظيرتها الأندلسيَّة ظرفيًا، وثقافيًا، ومكانيًا؛ لتتحول إلى بؤرة نصيَّة يتحركُ خيال الشاعر عندها، ويطرحُ رؤاهُ بإزائها؛ لأن البؤرة المكانيَّة بإمكانها توسيع وجودها، تخلقُ صورها المستمدة من وجودها، ليتحركَ خيال الشاعر في إطار حدودها المرسومة، ويبثُّ أفكارهُ، ويتجهُ صوب ما يحققُ عملية الخلقِ الإبداعيّ (يُنظر: النصيِّر، ياسين، 2011، ص 13) (See: Al-Naseer, Yassin, 2011, p. 13)، ولغرض استيضاح ذلك بنحو

واضح يمكن الوقوف عند قول شاعر الأندلس الأشهر ابن زيدون وهو يكابدُ ألم الحُبِّ والهجران؛ ليعبر عن ذلك بقوله :

(من البسيط) : (ابن زيدون، الديوان، 2005،ص 51) (Ibn Zaydun, Al Diwan, 2005, p. 51):

إنّي ذَكَرتُكِ بِالزَّهْراءَ مُشتاقاً وَالأُفقُ طَلقٌ وَمَرأى الأَرضِ قَد راقا

وَلِلنَسيـمِ اِعتِلالٌ في أَصائِلِهِ كَـــأَنَّـهُ رَقَّ لـي فَاعتَلَّ إشفاقا

وَالرَوضُ عَن مائِهِ الفِضِيِّ مُبتَسِمٌ كَـما شَقَقتَ عَنِ اللَـبّاتِ أَطواقا

يَومٌ كَأَيّامِ لَذّاتٍ لَنا انصَرَمَت بِتنا لَها حينَ نـــامَ الدَهرُ سُرّاقا

نَلهو بِما يَستَميلُ العَينَ مِن زَهَرٍ جـالَ النَدى فيهِ حَتّى مالَ أَعناقا

كَأَنَّ أَعيُنَهُ إِذ عايَنَت أَرَقي بَكَت لِما بي فَجالَ الدَمـعُ رَقراقا

وَردٌ تَأَلَّقَ في ضاحي مَنابِتِهِ فَازدادَ مِنهُ الضُحى في العَينِ إِشراقا

سَرى يُنافِحُهُ نَيلوفَرٌ عَبِـقٌ وَسنـانُ نَبَّهَ مِنهُ الصُبحُ أَحـداقا

كُلٌّ يَهيجُ لَنا ذِكرى تَشَوُّقِنا إِلَيـكِ لَم يَعدُ عَنها الصَدرُ أَن ضاقا

لا سَكَّنَ اللَهُ قَلباً عَقَّ ذِكرَكُمُ فَـلَم يَطِر بِجَنـاحِ الشَوقِ خَفّاقا

لَو شاءَ حَملي نَسيمُ الصُبحِ حينَ سَرى وافاكُمُ بِفَتىً أَضنـاهُ مـا لاقى

لا شكَّ أنَّ طريقة تفكير الشاعر ذهبت باتجاه جعل الطبيعة نظيرهُ في المعاناة فهي تعتلُّ(تمرض) لاعتلاله، تنقل أشواقهُ، وترسلُ معاناته، وتُخبر عمَّا آل إليهِ مصيره، والشاعر بذلك ينبئ عن امتلاكهِ لناصيةِ الخيالِ التي جمَّعها وخزنَّها في ذاكرته؛ ليطلقَ عنان قلمهِ ليترجمها على الورق صورًا مستقطبةً من بؤرة مكانيَّة جعلها صنوًا له في الحركة، والأداء، لتعمل هندسة الدماغ على إعادة ترتيب المخزونات، وترسل مجسَّاتها؛ موعِزةً للعقل البشري بأن يبثَّها طبقًا لما يراهُ مناسبًا بإزاء هذه الإدراكات، والحركة النصيَّة، وقيادة الشاعر للنسيج النصِّي، وفي هذا الشأن يذهب الدكتور محمد مفتاح بالقول إلى أنَّ (الخطابُ الشعريُّ وليدُ هذه المكونات جميعها؛ يُدرك بنسقي السمع والبصر، ثمَّ يخزنُ ما أُدرِكَ ونُظِمَ وعُلِمَ في الذاكرة؛ ليُستثارَ بعضٌ منهُ عندما تدعو الحاجة إلى ذلك بقياس المجهول على المعلوم؛ إنَّ الخزنَ في الذاكرة يتشكَّلُ في بنيات نموذجيَّة تُتيحُ التكهُّنَ بما سيتلو بناءً على ما ذُكرَ من مؤشرات) (مفتاح، محمد، 2010، الجزء 3، ص 342) (Moftah, Muhammad, 2010, Part 3, p. 342) معنى ذلك أنَّ الإيعازات الحسيَّة التي تتحول في منظور الشاعر إلى خيالٍ يرصدُ، ويستقطبُ؛ ليقودَ نسيجهُ النصيّ إلى حالةٍ من القلقِ الذي تتأرجحُ فيه حركيَّة النصّ بين الثبات والسكونُ، فصنع الشاعر ذلك بموهبته فما هو ثابتٌ أنَّهُ يعاني من ألمِ الهوى، وشدَّةِ الاشتياق، بيدَ أنَّ ما هو متحركٌ فهو يعمل على إرسال هذا الاستشعار عبرَ نقاط متحركة يقودها الخيالُ إلى التمظُّهر بصورٍ رمزيَّة، والتفاتاتٍ طبيعيَّة، عمل الشاعر على تحشيدها ذهنيًا ومن ثمَّ قام بإطلاقِها؛ لتكونَ معبّرًا رسميًا لمن نطقَ بهِ إحساسهِ، وقادت إليهِ أشواقهُ؛ ليجعلَ من مكامن الطبيعة وسيلةً لإبلاغ ماهيته الخطابيَّة.

إنَّ الخيالَ صفةً ملازمةً للشعرِ ولا تبارِحهُ بأي شكلٍ من الأشكال؛ بيدَ أنَّها مع الشاعرِ الأندلسيّ أخذتَ مأخذًا آخر، يُجاز لهُ أن يكون تحولاً رياديًا من حيثُ الرؤى، والأنساقُ، وطرائقُ التفكير في التعاطي مع بيئتها وأنموذجها المتفرَّد؛ لأنَّ الاستبطانات الشاعرة ينبغي أن تكون قادرة على استكشافِ الخفايا الكامنة وراء هذه العوالم، وتلتقطُ مجرياتِ أحداثها، وتعمل بعيدَ ذلك على تثوير مرصودات تلك العوالم، وتصييرها إلى فعلٍ يعكسُ طريقة تعامل الشاعر الأندلسيّ مع حيثياتها عبر ثقافة الخلق الخيالي الممكنة (يُنظر: عليمات، 2004، ص 15) (See: Alimat, 2004, p. 15) وما دام الحديثُ لمَّا يزل مستمرًا في مساحة الاشتغال الخياليّ التي عمل عبرَها ابن زيدون فيمكن الوقوف عند نونيتهِ الشهيرة في قوله: (من البسيط) (ابن زيدون، الديوان، 2005،ص 51) (Ibn Zaydun, Al Diwan, 2005, p. 51) :

كانَت لَهُ الشَمسُ ظِئراً في أَكِلَّتِه ... بَل ما تَجَلّى لَها إِلّا أَحايينا

كَأَنَّما أُثبِتَت في صَحنِ وَجنَتِهِ ... زُهرُ الكَواكِبِ تَعويذاً وَتَزيينا

ما ضَرَّ أَن لَم نَكُن أَكفاءَهُ شَرَفاً ... وَفي المَوَدَّةِ كافٍ مِن تَكافينا

يا رَوضَةً طالَما أَجنَت لَواحِظَنا ... وَرداً جَلاهُ الصِبا غَضّاً وَنَسرينا

وَيا حَيـــاةً تَمَلَّينا بِزَهرَتِها ... مُنىً ضُــروباً وَلَذّاتٍ أَفانينا

وَيا نَعيـماً خَطَرنا مِن غَضارَتِهِ ... في وَشيِ نُعمى سَحَبنا ذَيلَهُ حينا

لَسنا نُسَمّـيكِ إِجلالاً وَتَكرِمَةً ... وَقَدرُكِ المُعتَلـي عَن ذاكَ يُغنينا

اتخذ الشاعرُ من طريقةَ الاستعطافِ والإجلال لحبيبتهِ (ولاَّدة بنت المستكفي) وسيلةً لإبلاغ رسالتهِ الخطابيَّة، ويعلنُها بأنهُ ليس بمنزلتها شرفًا فهي ربيبة الملوك، بل ذهبَ لأبعدَ من ذلك وجعلَ من الشمسِ (ضئرًا أي مُرضِعةً) لها وهي مدللة تحت ظلال كِلتها.

سلكَ الشاعرُ سبيلاً فنيًا لملم عبرهُ أشتات المخزونات التي يحتفظ بها ذاكراتيًا افضت إلى ما يصطلح عليه في النقد المُعاصر بعملية (التفكيك) هذا المصطلح الذي عُني به جاك دريدا، ومن العرب الدكتور عبد الملك مرتاض وأسماهُ (التقويضيَّة) والدكتور عبدالله الغذامي وأسماهُ التشريحيَّة، ويُقصد به إجمالاً (تفكيك النصّ ثمَّ إعادة بنائهِ، هذه سيلةٌ تفتحُ للإبداعِ القرائي كي يتفاعل مع النصّ (وغليسي،2008، ص 345) (Waglisi , 2008, p. 345)، وبذلك ذهبَ الشاعرُ الأندلسيُّ صوب التفاعل مع الرؤى قُبيل انطلاقِها، والأفكار قُبيل عصفها، والصور قُبيل إشاعتها؛ ولذلكَ أكثر ما يُلحظ على الشاعر الأندلسيّ بأنَّهُ كثيرٌ العناية بحركيَّة النصّ، وتحديد مساراتِهِ، وتأثيثِ مفرداتِهِ؛ ومردُّ ذلكَ كلُّهُ يعودُ إلى طبيعة التحوُّل الفكريّ والثقافيّ التي طرأت على حياتهِ وجددتَها بوعيٍّ مختلفٍ، ورؤى انبثاقيَّة جديدة، ومسارات رياديَّة في إعادة صياغة الخطاب الشعريّ واستقرائه، وهذا العمل من شأنهِ إدامةِ الزخمِ لدى الشاعر الأندلسيّ في أن يوجَّهَ خيالَهُ نحو تحريكِ النصّ الشعريّ بنحو يحافظ فيهِ على ديناميَّة النصّ، وتجديدهِ، وتنشيط بناهُ الأسلوبيَّة على نحو الذي يكون فيهِ النصُّ الأندلسيُّ متشبعًا بالحركيَّة والأداء والثِقل الرمزيّ .

المبحث الثاني : مرحلة التخييل :

تمثَّلت مرحلة التخييل في مسارِ العمليَّة الإبداعيَّة على أنَّها تأخذُ بُعدًا جديدًا يتمثَّل بمشاركة القارئ للمبدع في تحليل الخطاب وتوجيه أُطرهِ المعرفيَّة؛ ليقودَ بالنتيجة إلى الهدفِ الذي تتضحُ فيه معالم اكتمال تجربة المبدع ونضجها، ومديدات ارتداد أثرها عبرَ تأثيرها بنتاج الثقافات المناظرة لها والمختلفة عنها، ويُعرَّف التخييل بأنَّهُ (نشاطٌ ذهنيٌّ يعبّرُ به عن تفاعلهِ النفسيّ مع العالم، انفعالهِ الوجداني بمواضيعه وأشيائه، وهو فعلٌ غير مقصور على فئةٍ دون أخرى أو على جنسٍ دون سواهُ بل يشتركُ فيهِ كلُّ الناس، ولا يختلفون إلاَّ في نوعية توظيفهِ ودرجتهِ، بيد أنَّ تأمُّل ذلك النشاط والتفكير فيه هو من طبيعة ذهنية أخرى، ويقتضي حركة إدراكية مغايرة؛ لأنَّهُ ليس أمرًا غريزيًا وطبيعيًا، وإنَّما هو فكريٌّ ونظريٌّ، ولا يتم إلاَّ في اللحظة التي تبتعد فيها الذات نفسيًا وإدراكيًا عن موضوع تخيلها) (الإدريسيُّ، 2015، ص 25) (Al-Idrisi, 2015, p. 25) ومعنى ذلكَ أنها تتعدى حدود ذاتيَّة الشاعر؛ لتتعدى إلى المتلقي الذي يستكمل اشتراطات التكامل الإبداعيّ واستقرائه؛ ليعمل على البحث في مكامن ما يرسلهُ الشاعر، ويستقصي آثاره، ويعمل على استمرار ديناميَّة النصّ الشعري، وربط أواصرهِ، ويفتشُ في مآلات ما يُفضي إليه عبرَ بروزهِ عاملاً في إثراء مشهديَّة القراءة النصيَّة، وتحديد أبعادِها الصوريَّة، عبر أدواتهِا المختلفة داخل منطقة التلقي من صور، ورموز، وتعابير مجازيَّة، وما إلى ذلك (يُنظر: عُبيد، 2010، ص 32) (See: Obeid, 2010, p. 32)، وبحكم ما اتصفَ به النسيجُ الشعريُّ الأندلسيُّ من اتجاهات فنيَّة متنوعة قاد لها فعلُ الخيالِ؛ ليصيرَها للتخييل فقد كانَ لتنوُّع الصور، واختلافِ الرموز، وتعدُّدِ الإشارات والإيماءات والقرائن التي استدلت عليها القراءة عبر مآلات التخييل الذي رسم أبعادَ عمقِ التجربة، وكشفَ خبايا النسيج النصيّ، وأضاء مناطق العُتمة التي اكتنفتهُ، ولغرض استيضاح ذلكَ جليًا يمكنُ الوقوف عند مرثية الشاعر أبي البقاء الرنديّ الأندلسي الشهيرة بعد سقوط الأندلس التي مطلعها :

لكُلِّ شَيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إنسانُ

إذ يقول : (من البسيط): (الديوان، ص 57) (Al Diwan, p. 57)

أين المُلوك ذوو التّيجانِ من يَمنٍ وأين منهم أكاليلٌ وتيـــــجانُ
وأين ما شاده شـــــدّاد في إرمٍ وأين ما ساسهُ في الفُرْس ساسانِ
وأين ما حازهُ قارُون من ذهبٍ وأين عادٌ وشـــــدّاد وقحـــطانُ
أتى على الكلّ أمرٌ لا مـــــردّ له حتى قضوا فكأن القوم ما كانـــوا
وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلك كما حكى عن خيال الطّيْفِ وسْنانُ
دار الزّمـــــــان على دارا وقاتله وأمّ كســـــــرى فما آواه إيوان
كأنّما الصعب لم يسهل له سببٌ يوماً ولا ملك الدّنيا سليمـــان

...

يا مَن لِذلَّةِ قَوم بَعدَ عِزّتِهِم أَحالَ حالَهُم كفرٌ وَطُغيانُ
بِالأَمسِ كانُوا مُلُوكاً فِي مَنازِلِهِم وَاليَومَ هُم في بِلادِ الكُفرِ عُبدانُ
فَلَو تَراهُم حَيارى لا دَلِيلَ لَهُم عَلَيهِم من ثيابِ الذُلِّ أَلوانُ
وَلَو رَأَيت بُكاهُم عِندَ بَيعهمُ لَهالَكَ الأَمرُ وَاستَهوَتكَ أَحزانُ
يا رُبَّ أمٍّ وَطِفلٍ حيلَ بينهُما كَما تُفَرَّقُ أَرواحٌ وَأَبدانُ
وَطفلَة مِثلَ حُسنِ الشَمسِ إذ برزت كَأَنَّما هيَ ياقُوتٌ وَمُرجانُ
يَقُودُها العِلجُ لِلمَكروهِ مُكرَهَةً وَالعَينُ باكِيَةٌ وَالقَلبُ حَيرانُ
لِمثلِ هَذا يَبكِي القَلبُ مِن كَمَدٍ إن كانَ في القَلبِ إسلامٌ وَإيمانُ

عُدت هذه القصيدة من عيون الشعرِ العربي في الأندلس رثى فيها الشاعر الأندلس وما حولها من المدن بعد ضعف حكم المسلمين، وقد دفع بقوى (الخيال) على استكمال المشهد؛ ليسلمَّهُ إلى (التخييل) لدى القارئ الذي راح يستقرأ صرخات الشاعر وبكاءهُ على المُلك العربيّ والإسلامي الزائل؛ إلى الحدِّ الذي أصبحَ فيه (العلج غير العربيّ) هو من يتحكم بالأمور، ويسوق النسوة والأطفال للعبودية والذلّ؛ ليستصرخ الضمير لدى قومهِ؛ ولكنَّه يصلُ إلى نتيجةٍ حتميَّة إلى أنَّ كلَّ شيء صائرٌ إلى الزوال ولا محيص عن ذلك .

إنَّ فعل التخييل خلقَ واقعًا افتراضيًا مماثلاً للواقع العينيّ وكان استنباط ذلك عبر حركة الصورة التي صيغَ منها النسيجُ النصيُّ في لغتها، وموسيقاها، وتراكيبها وكأنَّهُ جعلَ منها واقعًا عينيًا لا غبارَ عليهِ؛ متخذًا من السردِ الحدثيّ وسيلةَ إبلاغٍ نصيّ تتماهى وتتماشى مع حركة النصّ وتقلباتهِ في تمهيده، وأحداثهِ، وخاتمته؛ لأنَّ (النصَّ المرئيَّ تمثيلٌ للواقع، إلاَّ أنَّهُ في حقيقة الأمر خلقٌ لواقعٍ جديدٍ من الزمانِ والمكانِ ، ومن ثمَّ فإنَّهُ يتميز بالحركيَّةِ والتوتُّرِ وامتلاك إيقاعهُ الخاص) (فضل، 2014، ص 16) (Fadl, 2014, p. 16) والمقصود هُنا في الإيقاع الخاص ليس إيقاع الوزن وحده، وإنمَّا إيقاع توجيه النصّ وحركيته القائمة على ثنائية تضاديَّة بين مجدٍ سابقٍ رائع، ونكبةٍ حاليةٍ مؤلمة؛ مستتبعًا هذه الحركة بإيقاع الوزن القائم على تفعيلتي (مُسْتَفْعِلُن / فَاْعِلُن)؛ ليعملَ التخييل على إفراد مساحة وافية لنبرة الحُزن التي استظلت بحركيَّة نصيَّة تقودُ إلى وقائع وأحداثٍ ودلالات لا يمكن استيضاح كنهها إلاَّ التعمُّق في التخييل، وفكِّ شفرات النصّ تباعًا، واستيضاح مدلولاتِها، وفهم مغزاها؛ لأنَّ النصَّ (هو فعاليَّة لغويَّة مواضعات العادة والتقليد، وتلبست بروحٍ متمردة رفعتها عن سياقها الاصطلاحي إلى سياقٍ جديدٍ يخصُّها ويمثلها) (الغذامي، 2012، ص 10) (Al-Ghadami, 2012, pg. 10) وهذا يعني أنَّ من قاد إلى هذه الفعالية هو الحركيَّة النصيَّة التي أرسلها الخيال، وفسرَّها التخييل، ووضع لها الحدود المناسبة لفضاء القول والتفسير .

إنَّ حركيَّة النصّ تسيرُ في اتجاهاتٍ عدَّة، المهارةُ في لملمة شتات هذه الاتجاهات وجعلها تتناغم في عملية إبداعيَّة واحدة هو السبيل الوحيد لصناعة الجمال وتنميته؛ لأنَّ الذات الإبداعيَّة تميلُ إلى تنامي الحدث وصيرورته إلى حالةٍ يمكن استجلاء أثرها، والوصول إلى مفاداتها (فالذاتُ لا تحصلُ على موضوعها إلا بحركة ما قد تكون عسيرة أو يسيرة ... ومهما يكن الأمر فإنَّ هناك تفاعلاً يجري في فضاء وزمان معينين ويتحقق فيهما عبر العلامات اللغويَّة) (مفتاح، 1990،ص 8) (Moftah1990, p. 8)، ومعنى ذلك أنَّ

حركيَّة النصّ تتنامى وتستمرُ ديمومة تناميها بعد أن تنطلق من فضاء الخيال، لتصل إلى فضاء التخييل فتصنعُ حدثًا يتخذُ من سمة العمقِ مكانهُ الأرحب في الاستمرار على حركيته وتصاعد وتيرة أحداثِها ومآلاتِها، وما دام الحديثُ لمَّا يزل داخل منظومة الحُزن التي التقطتْ صورها، واستمدت أجواءها من فضاء الرؤيا الحُلميَّة لدى الشاعر الأندلسيّ فيمكن الوقوف عند نصّ ابن خفاجة الأندلسيّ الذي يتحسُّر على (بلنسية) التي يقولُ فيها (المقرّي، الجزء 6، ص 199) (Al-Muqri, Part 6, p. 199):

عاثتْ بساحتِكِ العدى يا دارُ ومحا محاسنَكِ البلى والنارُ
فإذا تردَّدَ في جنابِك ناظر ٌ... طالَ اعتبارٌ فيك واستعبارُ
أرضٌ تقاذفتِ الخطوبُ بأهلِها ... وتمخضَّتْ بخرابِها الأقدارُ
كتبتْ يدُ الحدثانِ في عرصاتِها ... " لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ"

انساقَ النصُّ وراء تداعيات ما حدث لمدينة بلنسية الأندلسيَّة وما حلَّ فيها من أمورٍ دفعت بأثرِ الحُزن أن يأخذَ مكانهُ من انبثاقات الشاعر التي سطرَّها نصيًا، فكانَ توثيقُ ذلكَ ينبئ بالأثر الذي يقدرهُ التخييل في مساحة الرؤية التي صدرَّها إليه الشاعر بطريقة احترافية جعلت من عنصرِ التخييل أن يكون في كامل جاهزيتهِ، لتحليل متبنيات النصّ، وتفكيك ما اعتراهُ من غموضٍ خفيٍّ، وكما يقول أدونيس (والواقع أنَّ الإيصال ليسَ بذاتهِ مهمًا، فقد يستطيعُ الشاعر أن يبسِّطَ قصائدهُ بحيث يتلقاها السامعُ أو القارئ بسهولة، لكن الأكثر أهميةً هُنا هو أن يقدر السامعُ أو القارئ أن يحوّلَ تلقيه إلى وعي نقديّ فعَّال) (أدونيس، 2005، ص23) (Adonis, 2005, p. 23)، وهذا ما يفعلهُ عنصر التخييل الذي يعملُ على أن يجعل مراحل الإبداع تتكامل، وتنصهر في بوتقة واحدة تظهرُ عبرها حركة النسيج النصيّ سائرةً باتجاه التنامي، واستمراريَّة الحدث، وإدامة التواصل بين أطراف العمليَّة الإبداعيَّة، فالبعدان الخيالي والتخييلي متداخلان في جوهر النصّ وديناميته إلى الحدِّ الذي يلتقيان به عند بوابة التأويل (ينظر:العمري،2005، ص 164) (See: Al-Omari, 2005, p. 164) ؛ليستحيل العملُ الشعريُّ وحدة موضوعيَّة تتكامل فيه عناصر التشكيل والإنتاج والفهم المتنامي .

المبحث الثالث : مرحلة امتداد الأثرِ ورجع الصدى :

إنَّ طبيعة التحولات الزمانيَّة والمكانيَّة من شأنها إحداثِ تغييرات وارتدادات على القيمة النصيَّة للمتون الإبداعيَّة سواءً أكانت شعريَّة أم نثريَّة وهذا الأمر لا جدالَ فيه، فخلقَ ذلكَ حركةً نصيَّة اختلفت عن قيمها المضمونيَّة الأولى أحيانًا بالمضمون وأحيانًا بالشكل والمضمون، وهذا ما يُفسِّرُ ظهور أنماط شعريَّة جديدة في الأندلس نتيجة عملية امتداد الأثر ورجع صدى هذا الأثر، وقد عزا هيكل سبب ذلك إلى أنَّ (الأندلسيين أحسُّوا بتخلفِ القصيدة الموحدة إزاء الألحان المنوعة، وشعروا بجمود الشعرِ التقليدي أمام النغم في حاضره التجديدي المرن، وأصبحت الحاجة الماسة إلى لون من الشعرِ الجديد يواكب الموسيقى والغناء)

(هيكل،1979، ص 138) (Heikal, 1979, p. 138)، وهذه الأنماط من الشعر قادت إلى حراكٍ إبداعيٍّ وثَّق آصرة التواصل بين تأثر العرب بغيرهم والعكس؛ بحكم جنوح هذه الأنماط الشعريَّة إلى الغناء فهي تميلُ إلى الاقتراب من التبسيط، والتداول المحليّ، وتنوع القوافي، وتعدد رنين الأجراس، الأمر الذي قاد إلى ابتكار حركيَّة نصيَّة متجددة بعثت طاقاتٍ إبداعيَّة مضافة لشعر العرب في الأندلس، ولاستجلاء ذلك يمكن الوقوف على موشح الشاعر ابن سناء الملك الذي يقول فيه (الملك ابن سناء، 1949، ص 70) (Al-Malik Ibn Sana', 1949, pg70)

سرِّح جفوني ... في روض وجنتيكا
هذي ديوني ... قد بليَت لديكا
حسبي مَنوني ... إن كان مِنْ يديكا
يا كلَّ طيبٍ له الجمالُ نَعْت ... ما بال ذنبي في حبِّ من أحببت
يا من تجنّى ... لا ذُقْتَ ما أذوقُ
قلبٌ مُعَنَّى ... ومدمع طليقُ
أفديك غصنًا ... وجدي به خليقُ
غصنٌ كثيب لَدْنُ التثني شَخْتُ ... قضيت نحبي مُذْ بان أو مذ بِنْتُ
الحسنُ يعلم ... أنكَ منه أحسن
وأنت أكرمُ ... والموتُ فيك أَهون
يفديك مُغرم ... أسَرَّ حتى أعلن
أنت نصيبي من كل ما اقترحتُ ... حسبيَ حسبي ما شِيتَ لا ما شِيتُ
أنا وأنتَ ... إسوة هذا الهجر
بالصبر بِنْتا ... مع انصداع الفجر
ومذ رحلتا ... غَنّي الجوى في صدري
سافر حبيبي سَحَر وما ودّعتو ... يا وحش قلبي في الليل إذا افتكرتو

بلا ريبٍ أنَّ النصَّ يشي بمقدار التحوُّل في المسارِ الشعريّ على صعيد القيمة الشكليَّة والموضوعيَّة والفنيَّة، عبر الاقتراب إلى الذهنيَّة البشريَّة في الأندلس؛ بحكم تعدد الأجناس والبيئات التي وفدوا منها، فكان من الطبيعي أن تأخذَ مأخذها من ذهنيَّة الشاعر العربيّ؛ ليحتكم إلى رؤية جديدة في إيصال نتاج يقتربُ فيه من الثقافة الجديدة، وطبيعة التحولات التي طرأت على فكره وشخصهِ؛ ليعمل خطَّ شروعٍ جديدٍ تلتقي فيه الأهواءُ والمشاربُ بمسمياتِها المختلفة؛ (ذلك أنَّ العربيَّ الذي كانَ يحدِّدُ هويتهُ انطلاقًا من تاريخِ جماعة معينة ومن دين هذه الجماعة بات يحدِّدُ هويتهُ في ضوءِ علاقة هذه الجماعة بالمكان وتفاعُلهِ معهُ) (سعيد، 1982، ص 33) (Saeed, 1982, p. 33)؛ الأمر الذي قاد الشاعر الأندلسيَّ إلى تجديد مفاهيمه ورؤاهُ صوب مستجداتِ فرضتها عليه التحولات القائمة في بيئته الجديدة وثقافتها، ولا تخفى هذه التوجهات في حركيَّة

النصّ الشعريّ الأندلسيّ وتجديده وابتكاراتهِ؛ ولغرض استجلاء ذلك بنحو أوضح يمكن الإشارة إلى أحد زجليات ابن قزمان الذي يعدُّ الشاعر الأكثر شهرة في هذا اللون من الشعر (كورينطي، 1980، ص 200) (Corinti, 1980, p. 200)، إذ يقول:

لا نزاهَ الا في الوادِ والنشْم والخضرِ والذلْ
وأنا مع المليحة نشرب والطير تولولْ
فالعروسُ اليوم تراهُ لس يخاف يصفهُ واصِفْ
مُرْ ترى الوادي مجلل بالصَّبايا و الوصايف
عملوا ثياب من الما ومن الشعورِ ملاحِفْ
ثم برقعُوها الأقمـار فرأيتَ أجملْ وأجملْ
الخليـج أكثر نزاه ۤ وأطمَ عاد وأطبعْ
(إنْ) دخلتَ وأنتَ مهموم فيزولُ الهمَّ أجمعْ
فـذا اردتَ ذاب أن ترى الغابَ فاطلعْ
وارتبطْ في الفُحش واشربْ وانطرب وغنِّ واصهلْ

إنَّها لغةٌ خاصة، ورؤيةٌ خاصة، وتوجهاتٌ خاصة في بثِّ نمطٍ شعريٍّ من الواضح أنهُ مستوحى من طبيعة المجتمع الأندلسي وهو يقتربُ من لُغةٍ هي للعامية أقربُ منها للفصحى، فالشاعر يتحدثُ هنا عن نزهة تبدَّى بها جمال الطبيعة، وأصوات الطيور، والوجوهُ الحِسان؛ ليشكلَّ نمطا الموشَّح والزجل حركةً ديناميَّة تتواصلُ مع حركيَّة النصّ العربيّ، وتمدُّه بثقافة جديدة لا تلتزم بحدود الالتزام الصارم التي تقوم عليه تلك الثقافة ومتبنياتها؛ بيد أنَّها تمتحُ من لغتها، ورؤيتها ما تراهُ متماهيًا مع سيرورة الحدثِ المتنامي إلى تبدو ظاهرة ما يُصطلح عليه جوازًا لا وجوبًا بـ(رجعِ الصدى)؛ لتتضح ضرورات هذا الامتداد متواصلة من طرفي الشرق والغرب، وهذا ما اتضح جليًا لدى شعراء (التروبادور) وهو شعر أوروبا القديم، وقد أثرى الدكتور محمد عباسة في كتابه (الموشحات والأزجال وأثارها في شعر التروبادور) هذا الجانب، وبيَّن مديات تأثُّر شعراء التروبادور بالموشحات والأزجال الأندلسيَّة، وهذا يعني أنَّ سلسلة التأثُّر والتأثير شغلت حيزًا وافيًا من عمليَّة الإنتاج الإبداعيّ التي تصدرتها وتميزت بها مشهديَّة الأندلس الأدبيَّة؛ لتكون دليلاً لهُ من القوة بمكان أن يُعلن عن تنامي النصّ الشعريّ الأندلسيّ واستمرار رفد حركيتهِ لبنى النصّ الشعريّ.

نتائج البحث وخاتمته

بُعيد هذا الاستقراء الاستقصائيُّ في متن الشعرِ الأندلسيّ، والتطواف في مساحات مضامينهِ يمكن الخلوص إلى النتائج الآتية:

1. صلاحية النصّ الشعريّ الأندلسيّ ومديات مرونتهِ في إعادة استقراء ذلك على وفق آليات النقد المُعاصرة .
2. وضوح الرؤية النقديَّة وثباتها في أنَّ النصَّ الشعريَّ الأندلسيَّ نصٌّ متحركٌ وفعَّال ومتنامي .

3. رسوخ الأثر لدى الشاعر الأندلسيّ قاد القول إلى أنَّ فعل (الخيال) مكَّن الشاعرَ الأندلسيَّ من التطبيع مع مشاهداتهِ وضخها لمتنِ النصّ الشعريّ؛ ليبقى على قيد الحركة دائبا .
4. إسهام عنصر (التخييل) بنحو فاعلٍ في استكمال عمليةِ الرصد، وتفكيك شفراتِها، وإضاءة ما كان معتمًا من متبنياتها؛ ليكونَ رافدًا أساسيًا في استمرار ديناميَّة حركة النصوص الأندلسيَّة، وبلوغها أقصى نقطة في الأثرِ والتأثير.
5. بلوغ الشعرِ الأندلسيّ مكانةً مهمة تؤكدُ عليها القراءة النقديَّة المُعاصرة في أن الشاعرَ العربيَّ بمقدارِ ما تأثَّر أحدثَ فنونًا شعريةً جديدة، تمتلك ثقافة خاصة اكتسبها من البيئة الجديدة التي انتقل إليها؛ ليعود هذا التأثرُ ويرجع صداهُ ليكون ذلكَ مصداقًا أكده مسار الشعرِ لدى ألأدب الأوروبي القديم الكامن في شعر (التروبادور).

المصادر

- ابن زيدون 2005 ، الديوان، تحقيق: عبدالله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط1،.
- الإدريسيُّ، يوسف2015 . ، مفهوم التخييل في النقد والبلاغة العربيين (الأصول والامتدادات)، دار وجوه للنشر التوزيع، المملكة العربيَّة السعودية، ط1،
- الربيعي، علي محمد هادي، 2012 ، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمَّان/ الأردن، ط1.
- الرندي الأندلسي، أبو البقاء، الديوان، تحقيق رفعت برهام حسن، القاهرة، ط1 (د.ت) .
- سعيد، د. خالدة ، 1980، حركيَّة الإبداع دراسة في الأدبِ العربيّ الحديث، دار العودة، بيروت/ لبنان، ط2.
- الطاهر مكي، 1987 ، دراسات أندلسية في الأدب والتأريخ والفلسفة ، دار المعارف، القاهرة ،ط3.
- عُبيد، محمد صا، 2010بر ، مرايا التخييل الشعريّ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمَّان/ الأردن، ط1.
- عليمات، د.يوسف، 2004 ، جماليات التحليل الثقافي (الشعر الجاهليُّ نموذجًا)،المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، عمَّان/ الأردن، ط1 .
- العمري،2005 ، محمد، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، المغرب،ط1.
- الغذامي، عبدالله محمد، 2012 ، الخطيئة والتكفير(من البنيوية إلى التشريحيَّة نظرية وتطبيق، المركز الثقافي العربيُّ، بيروت/ لبنان،، ط7.
- فضل، د. صلاح، 2014 ، قراءة الصورة وصور القراءة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،ط1.
- كورينطي، فيديريكو ، 1980 : ديوان ابن قزمان نصاً وتأويلاً ولغة، ،مدريد: معهد مدريد الإسباني ط1، .
- مفتاح، محمد، 1990 ، دينامية النصّ (تنظيرًا وإيجازًا)، المركز الثقافي العربي، بيروت/ لبنان، ط 2.

- مفتاح، محمد، 2010، مفاهيم موسعة لنظريَّة شعريَّة (اللغة، الموسيقى، الحركة) المركز الثقافي العربي، بيروت/ لبنان، ط1.
- المقري، نفح الطيب من على غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت .
- الملك، ابن سناء، 1949 ، دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، مطابع المطبعة الكاثوليكيَّة، بيروت.
- ناصر، أسيل محمد ، 2016، أثر الترميز الفنيّ في شعر الغزل العذري، دار الرضوان، عمَّان/ الأردن، ط1.
- النصيِّر، ياسين، 2011 ، شحنات المكان (جدلية التشكيل والتأثير)، دار الشؤون الثقافية، بغداد،ط1.
- هيكل، أحمد ، 1979، الأدب الأندلسيُّ من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار المعارف، مصر.
- وغليسي، د. يوسف ، 2008، إشكالية المصطلح في الخطاب النقديّ العربيّ الجديد، منشورات الاختلاف، بيروت/ لبنان،ط1.

References

- Al-Ghadami, Abdullah Muhammad, 2012, Sin and atonement (from structuralism to anatomical theory and application, Arab Cultural Center, Beirut / Lebanon, 7th edition.
- Al-Idrisi, Youssef 2015. The concept of imagination in Arabic criticism and rhetoric (origins and extensions), Dar Wujooh for publication, distribution, Saudi Arabia, 1st edition.
- Al-Naseer, Yassin, 2011, Shipments of Place (Dialectical Formation and Effect), House of Cultural Affairs, Baghdad, 1st edition.
- Al-Omari, Muhammad, 2005 The New Rhetoric Between Imagination and Deliberation, East Africa, Morocco, 1st edition.
- Al-Taher Makki, 1987, Andalusian Studies in Literature, History and Philosophy, Dar Al-Maarif, Cairo, 3rd edition.
- Corinti, Federico, 1980: Diwan Ibn Cosman Text, Interpretation and Language, Madrid: Spanish Institute of Madrid, 1st Edition.
- Fadl, Dr. Salah, 2014, Image reading and reading images, Vision for publication and distribution, Cairo, 1st edition.
- Heikal, Ahmed, 1979, Andalusian Literature from the Conquest until the Fall of the Caliphate, Dar Al-Maarif, Egypt.
- Ibn Zaydun 2005, Al-Diwan, investigation: Abdullah Sanada, Dar Al-Maarifa, Beirut, 1st Edition.
- King, Ibn Sana, 1949, Dar Al-Taraz in the work of Muwashahat, achieved by the quality of Al-Rikabi, Catholic Press, Beirut.
- Moftah, Muhammad, 1990, The Dynamics of the Text (theorizing and brevity), the Arab Cultural Center, Beirut / Lebanon, 2nd edition.

- Moftah, Muhammad, 2010, Expanded Concepts of Poetic Theory (Language, Music, Movement) Arab Cultural Center, Beirut / Lebanon, 1st Edition.
- Nasser, Aseel Muhammad, 2016, The Effect of Artistic Coding in the Poetry of Al-Ghazry Al-Adhri, Dar Al-Radwan, Amman / Jordan, 1st Edition.
- Obeid, Muhammad S.A., 2010, Barr, Mirrors of Poetic Imagination, Dar Majdalawi for Publishing and Distribution, Amman / Jordan, 1st edition.
- Olaymat, Dr. Youssef, 2004, The Aesthetics of Cultural Analysis (Pre-Islamic Poetry as a Model), The Arab Institute for Studies and Publishing, Amman / Jordan, 1st edition.
- Said, Dr. Khaleda, 1980, The Mobility of Creativity, A Study in Modern Arabic Literature, Dar Al-Awda, Beirut / Lebanon, 2nd edition.
- Woglisi, d. Youssef, 2008, The Problematic Term in the New Arab Critical Discourse, Al-Ikhtif Publications, Beirut / Lebanon, 1st Edition.